الفصل الثالث

الأحزاب والشخصيات العراقية البارزة

في ميدان السياسة

حتى عام ١٩٣٠

obeikandl.com

obeikandl.com

لقد برز العديد من الشخصيات والتنظيمات السياسية بعد الاحتلال البريطاني وانفجار ثورة العشرين فقد تم خلال عام ١٩٢٢ تشكيل حزبين مهمين هما الحزب الوطني العراقي برئاسة (جعفر أبو التمَّن) الذي دعا إلى الاستقلال والمحافظة على وحدة العراق والتقدم ،وهو استمرار لجمعية حرس الاستقلال وخرج من عباءته رجالات حزب الاستقلال ونادي المثنى (الاتجاه الاصلاحي العروبي) واليسار المعتدل ممثلاً بحركة (الأهالي) و(جمعية الاصلاح الشعبي) و (الحزب الوطني الديمقراطي) وارتبط بصفوفه بعض من عرفوا بأنهم شيوعيين فيما بعد وانتمى بعض منتسبيه فيما بعد الى (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار) التي اعتبرت ممثلاً للتيار الثوري ، كذلك كان لجعفر أبي التمن علاقة أو تأثير على صلاح الدين الصباغ الذي له دور في قيام حركة الضباط القوميين ١٢٨ . والحزب الثاني هو حزب النهضة العراقي برئاسة أمين الجرجفجي ، وقد دعا إلى الاستقلال وقيام حكومة عربية دستورية تعمل على بناء الوحدة الوطنية ، وقد اشترك الحزبان في المطالبة بنبذ التدخل البريطاني وإجراء انتخابات حرة ، وبسبب مناداة الحزبين برفض الانتداب قام المندوب البريطاني باستغلال فرصة فراغ السلطة فعطل الحزبين وقام بنفي عدد من الشخصيات وطرد عدد من الموظفين من الصف الوطني . وفي عام ١٩٢٤ أُسِّس حزب الأمة برئاسة ناجي السويدي ودعا هذا الحزب إلى الإسراع بوضع الدستور وإجراء الانتخابات . وفي العام التالي شهدت الساحة السياسية مولد عدد من الأحزاب منها اثنان في الموصل هما الحزب الوطني العراقي في الموصل وحزب الاستقلال الوطني ركزا على انتماء ولاية الموصل إلى العراق ، و في بغداد حزبان هما (التقدم) برئاسة عبد المحسن السعدون ؛ وقد دعا إلى العمل من خلال المعاهدات وتعديلها إلى تحقيق دخول العراق إلى عصبة الأمم ، و (الشعب) برئاسة ياسين الهاشمي وكانت أهدافه استقلال العراق وتطوير القوى الوطنية ودخول العراق

١٢٨- انظر حنا بطاطو / العراق ـ ج١ ص٤٣٣ وص٥٣٣ .

إلى العصبة . كمـا أسس نوري السعيد في عام ١٩٣٠ حزباً سماه حزب العهد لفرض حشد التأييد لسياسته في تشكيل الوزارة وتوقيع معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانيا .١٢٩

الحركات القومية والوطنية التي ظهرت بعد عام ١٩٣٠

ظهرت على الساحة السياسية والوطنية العديد من الجمعيات السياسية والأحزاب التي تبنى بعضها توجهاً داعيـا إلى استقلال الأقطار العربية وتوحيدها ، لقد عززت بريطانيا عن قصد أو بلا قصد الروح القومية العربية أيام حكم الدولة العثمانية في العراق والحجاز والشام ثم جاء الإنتداب البريطـاني على العراق وفرنسا فأجَّج هذه الروح وجعلها في موقف امتحان للوجود وكانت هذه المشاعـر عفوية في قلوب الناس ثم ظهرت مع الوقت الحاجة إلى التنظيم في العمل فظهرت جمعية الـجوال العربي وحصلت على إجازة العمل الرسمي في تشرين الأول ١٩٣٤ بعد سنوات من العمل السري ١٣٠ ثم ظهر نادي المثنى بن حارثة الشيباني الذي ضم عدداً من الشخصيات القومية وعمل على بث الـروح القومية الـعربية وإنماء الشعور الوطني١٣١ . وفي ٢ تموز ١٩٣١ وافقت وزارة الـــداخلية العراقية على صدور جريدة (الأهالي) التي كـان وراءهـا التيـار الإصلاحي الميال لليسـار والمتمثل بـ (جماعـــة الأهالي) والتي اتبعت نهجاً تثقيفياً بهدف بناء أساس وقاعدة شعبية واسعة ومتنورة أكسبها ذلك الطابع بعض السياسيين الوطنيين المتنورين مثل كامل الجادرجي ومحمد جعفر أبو التمن ، و نشرت كراساً حول مبدأ «الشعبية» الذي نادت به الجماعة . ثم جـاء انضمام حكمت سليمان السياسي المتطلع إلى ارتقاء الحكم١٣٢ ليتخذ من الجمعية مرتكزاً وسنداً لـه في الساحة السياسية وتعزز هذا التوجه بدخول بكر صدقي أو تنسيقه مـــع الجمعية من خلال حكمت سليمان

١٢٩- لنظر / العراق في التاريخ ص٨٦٦ والصفحات اللاحقة .

١٣٠- تاريخ العراق المعاصر / ص٨٨ .

١٣١- انظر تاريخ العراق المعاصر ص٣٩ .

١٣٢- ينتمي الى عائلة يرجع نسبها الى أحد ولاة المماليك وله صلات بالوزيرمحمود شوكت باشا الذي كان وزيراً للدفاع في الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى ثم أصبح رئيسا للوزراء قبل اغتياله .

، وتم تشكيل تنظيم عسكري مستقل عـن الجمعية يضم الضباط الـذين اتصل بهم حكمت سليمان . وقد تحولت الجماعـة إلى (جمعية الاصلاح الشعبي) التي شاركت في حكومة حكمت سليمان بعد انقلاب بكر صدقي ثم انسحب وزراؤها بعدما اتضح تحكم بكر صدقي بالحكومة وكانت غاية الجمعية تتمثل في « السعي للقيام بإصلاح سياسي واجتمـاعي واقتصادي يعود نفعه على عامة أفراد الشعب ويحقق تقـدم الشعب ويقضي على الاستغلال١٣٣ « ، ويستطيع القارئ أن يتلمس مابين المفردات ميلًا أو على الأقـــل وعياً يسارياً ربما كان يحمل الكثير من الدلالات للماضي وللمستقبل . كما ظهرت منظمة الميثاق القومي العربي وهي منظمة ذات نشاط سياسي أنشأها ضباط في الجيش العراقي اتخذت أهـدافاً وطنية وقومية واستفاد ضباطها من مناصبهم لتقديم العون إلى ثوار فلسطين على وجه الخصوص ، وبعد انقلاب بكر صدقي والتخلص منه ظهر نفوذ هؤلاء الضباط في الجيش وخـارجه في ميدان السياسة نتيجة للتأثير المستجد للجيش في ذلك الميدان وكان نوري السعيد على اتصال وتأثير دائم مع الضباط القوميين١٣٤ وعند نشوب الحرب العـالمية الثانية وتشكيل حكومة الهاشمي في أول شباط ١٩٤١ التقى وزير خارجية بريطانيـا بوزير خارجية العراق وأبلغه اعتراض بريطانيا على توجهات الجيش القومية و « يبدو أنه طلب من السويدي تشتيت قادة الجيش القوميين « ١٣٥ . وعلى أثر محاولة الحكومة لتنفيذ ذلك وإجبـارها على الاستقالة وهروب الوصيّ وسقوط حكومة الدفاع الوطني على يد القوات البريطانية لجأ هؤلاء الضباط إلى إيران ثم سلمتهم إيران إلى الحكومة العراقية التي أعدمتهم .

١٣٣- تاريخ العراق المعاصر ص٩٩ .

١٣٤- انظر تاريخ العراق المعاصر ١٠١ وص٢٠١ وص١١١ .

١٣٥- تاريخ العراق المعاصر ص٣٢١ .

امتيازات النفط البريطانية في العراق

أسست بريطانيا بالمشاركة مع ألمـانيـا شركة باسم (شركة النفط التركية) حصلت على وعد شفوي من السلطات العثمانية بالسماح بالتنقيب ، فلما قامت الحرب العالمية الأولى حلت فرنسا محل ألمانيا وحـــازت على نسبة ٢٥ في المئة كما أضيفت هولندا والولايات المتحدة الأميركية كمالكي حصص بنفس النسبة فيما بعد . وافقت الحكومة العراقية على منح الشركة الامتياز للتنقيب والإنتاج فـي ١٤ آذار ١٩٢٥ لتضمن مساندة بريطانيا في قضية الموصل ، شمل الامتياز معظم أرض العـراق ولمدة ٧٥ عاماً ، وبدأت الشركة بالتنقيب ..و في ١٣ تشرين الأول ١٩٢٧ تدفق النفط من آبار بابا كُركُر في كركوك .وقد غُيّر اسم الشركة فيما بعد إلى (شركة نفط العراق المحدودة) وفي عام ١٩٣٤ بدأ تصدير النفط العراقي عن طريق موانئ البحر المتوسط بمعدل انتاج بلغ ثلثي المليون من الأطنان١٣٦ .

دور الجيش في السياسة ، والانقلابات العسكرية

في شهر تموز من عام ١٩٣٣ كان الملك فيصل خارج العراق لغرض العلاج وكان الأمير غازي نائباً للملك ورشيد عـالي الكيلاني رئيساً للوزراء ، وقد قامت مجموعة من الآثوريين بتمرد ضد الحكومة وربما كـان ذلك بدفع من البريطانيين فقامت قوات عسكرية بقيادة بكر صدقي بقمع التمرد بقسوة وأيده نـائب الملك ورئيس الوزراء ، فحظي الأمير والجيش بالتأييد الشعبي والإعجاب رغم أن الملك أرسل برقية يوصي فيها باللجوء إلى الحكمة واللين وأصبح الجو متأزماً مع بريطانيا فعـاد الملك لتصفية الأجواء ثم رجع إلى سويسرا لاستكمال معالجته حيث توفي هناك ، وهكذا كانت صفحة الملك الجديد مؤشرة بعلامة العداء مع بريطانيا قبل أن يتوج ، كمـا أصبح بكر صدقي شخصية لامعة . وبوفاة فيصل خسرت البلاد دوره المهم في الموازنة بين القوى الوطنية

١٣٦- انظر العراق في التاريخ ص٣٧٦ وص٤٧٦ .

والبريطانية وفي السياسة الداخلية.

تَوّج غازي ملكا للعراق في ٨ أيلول ١٩٣٣ وهو قليل الخبرة في السياسة وتفاصيلها فلم يكن له دور في السياسة التي انشغـل بها أساطينها من زعماء الأحزاب وغيرهم وكان بعض هذه الأحزاب مؤيداً لبريطانيا مثل حزب العهد والتقدم وحزب الأمة الاشتراكي وحزب الأمة الدستوري فكان لهؤلاء النصيب الـوافي من مسؤوليات الحكم ، أما القسم الآخر من الأحزاب والسياسيين فكان بعضهم معارضاً للمعاهدات مع بريطانيا مطالباً بالاستقلال التام ، أما الآخرون فكانوا يؤيدونها إذا كُلفوا بالمسؤولية ويعـارضونها إذا أُعفوا مـن المناصب. وفي عامي ١٩٣٤ و١٩٣٥ تحالف بعض السياسيين (حكمت سليمان) مع رؤساء العشائر في الفرات الأوسط ودفعوهم للقيام بحركـات مسلحة أدت إلى إسقاط حكومتي علي جودت الأيوبي ثم جميل المدفعي فلمـا أصبح ياسين الهاشمي رئيساً للوزراء أوعز إلى بكر صدقي لقمع حركة العشائر فقمعها بشدة مما خلق حالة استياء من حكومة الهاشمي .

اتخذ الهاشمي عددا مـن الإجراءات استهدفت تقوية الجيش ودعا إلى تكوين جبهة تعضد الخطط الإصلاحية التي ارتأى تطبيقها في مجالات الزراعة والري والصناعة والمالية والإدارة كما اتبع سياسة قومية عربية وطور علاقات العراق العربية وساند النضال التحرري الفلسطيني والسوري واتخذ موقفاً حازماً ضد أطماع إيران ومحاولاتها التوسعية على حساب أرض العراق ومياهه١٣٧. ولم يلبث خصومـه السياسيون وعلى رأسهم حكمت سليمان أن اتجهوا إلى الاتفاق مع بكر صدقي لتحريـك الجيش في حركة انقلابية على الحكومة أيدتها جمعية الإصلاح الشعبي١٣٨ إلى أن تبين أن بكر صدقي لـن يفتأ يتدخل في شؤون الحكومة التي شكلت برئاسة حكمت وعضوية وزراء من الجمعية

١٣٧- انظر /تاريخ العراق المعاصر ص٦٨ وص٧٨ والعراق في التاريخ ص٠٩٦ .

١٣٨- يشير حنا بطاطو في الجزء الثاني من كتابه (العراق) ص٤٩ أن الشيوعيين ساهموا في حشد تظاهرات التأييد للانقلاب .

فانسحب الإصلاحيون من الحكومة ، كما راح بكر صدقي يدبر الإغتيالات للتخلص من بعض مناوئيه ، وجرت عدة محاولات لاغتياله نجحت آخرها عندما قام أحد الضباط بإطلاق النار عليه في نادي الضباط بالموصل . كان انقلاب بكر صدقي بمثابة تسلط على القوى القومية ليس في الميدان السياسي بل على صعيد الجيش أيضاً وبالتخلص منه استعاد الضباط ذوي التوجه العربي القومي نفوذهم في الجيش وأصبح لهم نفوذ في السياسة خصوصاً بتأييد الملك غازي وعلاقته القوية بهم .

التدخلات الإيرانية من جديد والورقة الطائفية

انشغلت إيران لفترة من الزمن بوقوع انقلاب فيها ضد الأسرة القاجارية الحاكمة في مطلع القرن العشرين وأصبحت تتجه إلى بناء دولة بعيدة عن الدين ، ولكن يبدو أن ديدن الحكام الجدد مع العراق لم يكن مختلفاً عمن سبقوا ، ففي عام ١٩٢١ وصل (رضا بهلوي) إلى الحكم في إيران وما أن استقرت له الأمور حتى قام في سنة ١٩٢٥ باحتلال عربستان دون أن يرفع أحد صوته بالمعارضة ولم تتدخل بريطانيا بل ربما كانت تشجعه من طرف خفي ، ثم راح يطالب بامتيازات في شط العرب كلما شعر بنفسه في موقع قوة وكلما شعر أن حكومة العراق في موقع ضعف فقد طالب بتنازل العراق عن ثلاثة كيلومترات من شط العرب للوصول إلى عبادان لكن حكومة ياسين الهاشمي التي جاءت بعد فترة من الاضطرابات السياسية رفضت ذلك بحزم فلما جاءت حكومة حكمت سليمان بعد انقلاب بكر صدقي استغلت إيران وجوده في السلطة لفرض معاهدة ١٩٣٧ بين البلدين التي جعلت خط الحدود يمر بمجرى المياه العميق لمسافة سبعة وثلاثة أرباع الكيلومتر١٣٩ . ولم تكن المواقف غير الودية تصدر عن الحكومة فقط فقد أفاد تجار عراقيون أن تجارتهم خسرت بسبب ممقاطعة التجار الإيرانيين لهم بسبب أن العراقيين اختاروا ملكا سُنّيّاً ١٤٠ ، مع أن العائلة الفيصلية تنحدر من انتماء علويّ نسباً

١٣٩- انظر العراق في التاريخ ص٧٨٦ وص٩٨٦ وص٠٩٦ وص١٩٦ .
١٤٠- انظر نشأة العراق الحديث / ج٢ ص٣١٤ .

ومن انتماء زيدي مذهباً وهو المذهب الذي يجمع أو يتوسط بين الانتماء الى التشيع وبين الفقه السنّي ولا يزال هذا المذهب الإسلامي منتشراً في اليمن على وجه الخصوص . وهناك مؤشرات واضحة تشير بأصابع الاتهام الى بريطانيا بأنها تقف وراء النشاطات التي تحمل دعاوى طائفية كتلك التي حاول حزب النهضة بثها من خلال مقالات رئيسه أمين الجرجفجي في جريدة النهضة الناطقة باسم الحزب والتي تتحدث عن المظالم الشيعية بسبب سيطرة السنة في محاولة لتحريك الشيعة ، وعندما أمر مجلس الوزراء بغلق الصحيفة قام المندوب البريطاني بلفت نظر المجلس الى أنها حالة فاضحة من حالات تجاهل استشارة المندوب في اتخاذ القرارات ، ولوحظ أنه في ذات الوقت نشطت الحركة الوهابية المعروفة بإخوان نجد لشن الهجمات على العراق لتوفير عامل إضافي للتململ الشيعي وبعث حركة تمرد طائفي ضد نظام الحكم الذي لايحمي الشيعة١٤١ ، ولاحاجة للقول أن طرفي الكماشة كانت تحركهما اليد البريطانية لتؤكد للملك ولغيره في العراق أنه لايستطيع أن يصل الى أهداف تتعارض مع رغبات بريطانيا وخططها وفي نفس الوقت لتبين له أنها تدرك محاولاته استغلال قوة الشارع ضد وجودها وتستطيع مقابلته بالمثل . ونجد ملامح تذكر لتعاون مع البريطانيين ضد فيصل في دعوة موجهة الى جعفر أبي التمّن وجهها له أحد كبار علماء الشيعة لينضم الى أبناء طائفته مع التعهد بتوصية البريطانيين بإسناد منصب رئاسة الوزارة الى جعفر أبو التمن الذي رفض العرض وطلب من المذكور عدم التدخل في السياسة١٤٢ .

١٤١- انظر حنا بطاطو ـ العراق ج١ ص ٤٦٣ وص٥٦٣ .

١٤٢- انظر : حنا بطاطو / العراق ج١ ص٢٣٣ والشيخ الذي أشار اليه هذا المصدر هو الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء .

الحركات السياسية الوطنية في العراق بعد الحرب العالمية الثانية

نشأت بعد الحرب العالمية الثانية حركـات سياسية وأحزاب جديدة بعضها ولد من رحم الحركات القديمة وبعضها تعبير عـن تحالفات جديدة فظهر حزب الاستقلال الذي أُجيز في ٢ نيسان ووصف أعضاؤه بأنهم « مـن القوميين الموالين لرشيد عـالي الكيلاني ولهم مواقف معادية للغرب « ١٤٣ ، وكان له تأثير استمر طويلا في الأوساط السياسية ، ودعا إلى مساندة الأقطار العربية وتحقيق الوحدة بينها ومكافحة الصهيونية وإصلاح قوانين الانتخاب والإدارة والأجهزة الرسمية ومكافحة الفقر وتوزيع الأراضي الزراعية ورفع مستوى معيشة العمال . ووجه النقد الجريء للحكومة ، تمَّ تعطيله في ١٩٥٢ وعاود نشاطه في ١٩٥٣ إلى أن قام نوري السعيد بحَـل الأحـزاب السياسية في عام ١٩٥٤ كما ظهر الحزب الوطني الديمقراطي الذي قدم طلب الإجازة عام ١٩٤٦ وتمتد جذوره إلى جماعة الأهالي ومن أبرز قادته (كامل الجادرجي ، محمد حديد ، حسين جميل ، عبد الوهاب مرجان ، صادق كمونة) ودعا إلى القيام بإصلاح عام في كافة النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهناك حركات أخرى بعضها لاترمي إلا لدعم شخصية معينة في السلطة أو تحاول الوصول إلى السلطة١٤٤ . ودعا كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي حزبه الى تبنّي فلسفة حزب العمال البريطاني (الاشتراكية الديمقراطية) ليتميز الحزب عن الشيوعيين فيكون بإمكانه الاستفادة من الفرص المتأتية من تصميم البريطانيين على محاربة الشيوعية وعلى استبعاد حزب الاستقلال عن المشاركة في الحكم١٤٥ . كذلك تم تأسيس حزب الاتحاد الوطني الـــذي تبنى المبادئ اليسارية والتقى مع الشيوعيين في الأهداف وسحبت رخصته في أيلول من عام ١٩٤٧

١٤٣- تاريخ العراق المعاصر ص٠٤١ .

١٤٤- انظر المصدر أالسابق (تاريخ العراق المعاصر) ص٠٤١ و٥٤١ وما بعدها .

١٤٥- حنا بطاطو ـ العراق ـ ج١ ص٤٤٣ .

، والحال نفسه مع حزب الشعب وهو حزب يساري آخر . كما نشأت أحزاب سرية منها الحزب الشيوعي العراقي الذي عقد مؤتمره الأول عـام ١٩٤٥ وبالنظر لمعاداته الشديدة لبريطانيا والحكومة التي كانت خاضعة لها تماماً فقد أُعدم قادته عام ١٩٤٩ ، والحزب الديمقراطي الكردستاني الذي أُسِّس عام ١٩٤٦ خارج الـعراق متبنياً المبادئ الماركسية ودعا في فترة ما إلى الانفصال عن العراق ، كذلك حزب « البعث « .. الذي شكل فرعه الأول عام ١٩٥٢ ، كما ظهرت (الجبهة الشعبية المتحدة) التي أسسها نواب وسياسيون معارضون في حزيران ١٩٥١ وتركزت مطالبها في الحياد وتحرير الاقتصاد والوحـدة العربية وإلغاء المعاهدات مع بريطانيا . وقد شجعت هذه الأحزاب على تطور رأي عام معارض للنظام١٤٦.

قيام الاتحاد السوفيتي وآثاره السياسية في العراق

لقد نجحت الثورة البلشفية الشيوعيـة في روسيا عام ١٩١٧ وأدت إلى قيام الاتحاد السوفيتي على الأراضي التي كانت الامبراطورية الروسية تتكون منها ، على أساس العقيدة الشيوعية التي لاتؤمن بوجـود الخالق وتعتبر الدين مخدراً تخدر به الشعوب لتغفل عن مصالحها ودعت لإلغاء الملكية الـفردية لوسائل الإنتاج كبداية للشيوعية . وقد ناهضت الحكومة السوفيتية دول الغرب وفضحت اتفاقـاتها على تقاسم البلدان المحررة وعملت على نشر العقيدة الشيوعية ودعم وتأسيس الأحزاب التي تعمل بهذه العقيدة . ورغم ما هو شائع عن تأسيس (الحزب الشيوعي العراقي) على يـد يهودي اتخذ لنفسه اسم (فهد) وظهور معلومات أخرى تفيد بأن فهد لم يكن سوى حلقة في سلسلة بدأت مبكراً لكن نشاطات هذا الحزب لم تظهر إلا في الفترة التي شهدت قيام العلاقات مـع السوفييت فقد كانت قبل ذلك بعيدة عن الواجهة .

وبعد الحرب العالمية الثانية أقام العراق عـلاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي في

١٤٦- انظر محسن حسين الحبيب / حقائق عن ثورة ٤١ تموز الصفحات ٠٢، ١٢ ،٢٢ .

آب ١٩٤٥ و تمَّ تبـــادل الوزراء المفوضين بين بغداد وموسكو ١٤٧ ، ولاشك أن ذلك عـزز النشاطات الشيوعية واليسارية في المراحـل اللاحقة ولو معنوياً ، وكانت نشاطاتهم معادية للحكم الملكي وللتوجه القـومي بشكل عـام فكان لهم في هذا الصدد تأثير مهم في الساحة العراقية والواقـــع أنهم شجعوا الانقسامات الدينية وحركات الأقليات والدعوات الإنعزالية المحلية العراقية ومـن المحتمل أنهم نسقوا نشاطاتهم مع كل من إيران والحركات الانفصالية في بعض المراحل فـي العهد الملكي (على الأقل) ، لكن ليس لدينا دليل مؤكد بهذا الصدد . لكن من المعروف أن حزب تودة الإيراني الشيوعي كان بمثابة المرجع للأحزاب الشيوعية في المنطقة وأن الجماعات الكردية ارتبطت بعلاقات متميزة مع حكومات إيران المختلفة وأن الأقلية الإيرانية أو الفارسية ظلت على الدوام نشطة في إدامة علاقاتها مع الأقليات في العراق وفي تقوية علاقاتها مع الأطراف الشيعية التي تتوجه باتجاه مغاير للسلطة في العراق وفي خلق النفور من الزعامات الشيعية ذات التوجه القومي أو العروبي مثل زعامة عائلة الصدر و العائلة الخالصية. ويبدو من الغريب أن نعثر على زعم بأن اثنين من كبار علماء الشيعة أعربا عن التأييد لقيام علاقات متينة مع روسيا البلشفية بتوسط بعض الناشطين الإيرانيين ١٤٨

دور الضباط القوميين

لاشك أن ابتعاد الجيش عن السياسة وقصر نشاطه على الصعيد العسكري والانشغال بمهمة الدفاع عـن الوطن يجعله ملاذ الشعب والحكم الصارم على انحراف السياسي عندما ينحرف عن المصلحة العـامة ، ولكن كثرة تدخلاته في الشأن السياسي يؤدي إلى الانحراف نحو الدكتاتورية والاستبداد ويلغي دور المؤسـسات الديمقراطية في تمثيل مصلحة الشعب . كان الضباط القوميون حريصين على مصلحة الـعراق والأمة العربية لكنهم . كما أرى . أخطأوا عندما أرادوا فرض إرادتهم ورؤيتهم على السياسيين وفرضهم

١٤٧- انظر تاريخ العراق المعاصر ص٤٣١ .
١٤٨- انظر حنا بطاطو / العراق ـ ج٢ ص٢٨٣ ـ ٦٨٣ .

الاستقالة على حكومة ياسين الهاشمي ومحاولة التمسك بالهيمنة على الجيش وتحدي القـوة البريطانية دون أن يضمنوا القوة والتأييد اللازمين فكلفهم ذلك أرواحهم وحرمان البلاد من فـرص التطور لفترة من الزمن خضوعها للتحكم البريطاني كما خسروا مواقف بعض السـاسة ونشاطاتهم التي كانت مفيدة أحياناً مما جعل هؤلاء يتحولون إلى التأييد الصريح لبريطانيـا وأسست حركتهم لانقلابات كثيرة قادمة حمل معظمها الرايات والشعارات القومية لكنها دمرت استقرار الـعراق وأوقعته تحت حكم أحزاب أو شخصيات مستبدة وحكم انفرادي استبدادي مقيت خـاض ثلاثة حروب منهكة ومدمـرة مضحياً بثروة العراق وأبنائه وقدراته العسكرية والاقتصادية والعلمية والصناعية وانتهى ذلك باحتلال فتح الأبواب على وجه خـاص أمام أعداء العراق من كل الألوان ، وقد كان لسياسـات بريطانيـا وبسبب تمسكها بأطمـاعها الاستعمـارية (التي دفعتها إلى خوض كل هذه الحروب الاستعمارية) الدور الأساس في ذلك كلـه لكن الوقوف بوجهه كان يتطلب حكمة الملك فيصل وبراعته في المناورة السياسية .

السياسة الاقتصادية والثقافية للمملكة العراقية

كانت قوانين اللزمة والطابو وحقوق التصرف وتسوية حقوق الأراضي .وغيرها قد شرعت لصالح كبار الملاكين وشيوخ العشائر فبلغ بعض الملكيات الإقطاعية حـوالي نصف مليون دونم وكان عدد الملاكين الذين يملكون أكثر من (مئة ألف) دونم لايزيدون على المئة إلا بقليل وكان ٨٥ بالمئةمن سكان الريف لايملكون شبراً من الأرض واستغل الملاكون قانون تسوية حقوق الأراضي الذي صدر عام ١٩٣٨ لتسجيل المزيد مـن الأراضي بأسمائهم بدلاً من الفلاحين المحرومين كمـا لم تخضع أراضيهم لأي ضرائب رغم أن الدولة أنفقت مبالغ كبيرة على بناء السدود وجداول الـــري وتحسين التربة ، هذا في قطاع الزراعة الذي هو القطاع الرئيسي لنشاط السكان ، أما في القطاع النفطي الذي أصبح محط الآمال الحكومية فقد كانت حصة العراق (بموجب اتفاقية آب ١٩٢٥)

أربعة (شلنات) ذهبية عن كل طن مصدَّر من نفط العراق من قبل شركة النفط المشتركة بين بريطانيا وهولندا وفرنسا وأمريكا ، ورغم ضآلة النسبة المذكورة فقد بلغ مجموع إيرادات العراق من الشركة المذكورة (ثلاثة ملايين ونصف المليون) دينار عام ١٩٤٥ ، وتمت بعد عدة محاولات زيادة نسبة حصة العراق إلى ٦شلنات عن كل طن ، وفي قطاع الصناعة صدر قانون تشجيع المشاريع الصناعية واتحاد الصناعات ،وبعد تأسيس مجلس الإعمار ومساهمته في إنشاء بعض المشاريع صدر قانون لإدارة المشاريع وقانون تنظيم المشاريع لكن يبدو أن بعض المشاريع أقيمت على أسس غير اقتصادية إما لوجود منافسين محليين أولعدم القدرة على التصدير كما انحصر معظم المشاريع في صناعات استهلاكية اعتمدت على آراء الخبراء البريطانيين والأمريكيين الذين أوصوا بعدم نجاح قيام صناعات ثقيلة في العراق ، أما في قطاع التعليم وهو القطاع الحكومي الرئيس لرفع المستوى الثقافي في البلاد فقد كانت المشكلة هنا التركيز في سياسة التعليم العالي على العلوم الإنسانية والنظرية ووضع العراقيل أمام العلوم التطبيقية الحديثة كالطب والهندسة وكذلك التعليم المهني فكان ذلك بمثابة عقبة لتأخير تطور البلاد والإبقاء على حاجتها الماسة إلى الخبراء الأجانب من البريطانيين والأوربيين ويدوم إرسال البعثات إلى بريطانيا ودول الغرب ١٤٩ .

انتفاضة سنة ١٩٤٨

لقد كانت معاهدة ١٩٣٠ بمثابة الخنجر في خاصرة استقلال العراق وسيادته ، وعندما قاربت مدة هذه الاتفاقية على الانتهاء كانت بريطانيا تُعِدُّ لعقد معاهدة جديدة وبدأت فعلاً المفاوضات لإقرارها.. رغم اعتراضات الأحزاب المعارضة وتظاهرات الطلاب حيث سافر رئيس الوزراء صالح جبر إلى لندن حيث وقّع المعاهدة التي وصفت بأنها أسوأ من سابقتها بالنسبة لمصالح العراق الذي كان شعبه يتطلع الى علاقات متكافئة أوالتخلص

١٤٩- انظر/ محسن حسين الحبيب/ حقائق عن ثورة ٤١ تموز الصفحات ٣٢ ، ٥٢ ، ٦٢ . وانظر كذلك كتاب ثورة ٤١ تموز ١٩٥٨ في العراق/ليث عبد الحسن الزبيدي / ص ٥٢ و٦٢و٧٢ و٨٢ و٩٢وص٢٣ .

من المعاهدات ليتسنى له الاستفادة من العلاقات مع القوى الأخرى على الساحة الدولية ، وعندما تواردت أنباء التوقيع بدأت معارضتها تأخذ شكل صدامات مسلحة مع الشرطة وتزايد تدهور الوضع حتى صدر عن الوصيّ بيـان وعد الشعب بعدم إبرام المعاهدة . هذا كله حدث ولما يرجع بعدُ رئيس الوزراء من لندن ..فلما عاد حاول فرض المعاهدة على الشعب لكنه اضطر إلى تقديم استقالته قبل أن ينجح في إقرار المعاهدة وبذلك برزت قدرة الشعب الكفاحية وإرادته القوية ، وكانت أيضاً رسالـة إلى البريطانيين بتزايد المخاطر على وجودهم في العراق فيما كانت بريطانيا تعتبره أساساً لـوجودها في المنطقة التي اعتبرتها منطقة حيوية لمصالحها ولا يمكن السماح بوجـود منافس عليها لأنها مصدر كبير من المصادر البترولية في العالم وكان يراد (كما يبدو) لهذه المعاهدة أن تكون بداية لسلسلة من المعاهدات المشابهة مـع الأقطار العربية ١٥٠.

١٥٠- انظر/محسن حسين الحبيب / حقائق عن ثورة ٤١ تموز ص٨٢

obeikandl.com

obeikandl.com

آثار الأحداث الثورية في إيران ومصر و قيام حلف بغداد

لقد قامت في إيران حكومة جديدة برئاسة مصدق قامت بتأميم النفط في بلادها وذلك في عام ١٩٥١ مما دفع نواب المعارضة إلى مطالبة وزارة نوري السعيد بالـــعمل على استخلاص حقـوق العراق فبدأ المفاوضات مع الشركة انتهت بالاتفاق على مناصفة الأرباح فيما طالبت أحزاب المعـارضة بتأميم النفط فحذرت الحكومتان البريطانية والأمريكية من أي خطوة بهذا الإتجاه وقدمتا مذكرة لتكوين حلف دفاعي بين العراق و الدول العربية المجاورة له لكن معارضة الاتحـــاد السوفيتي والأحزاب المعارضة الشديدة ألغت العمل على تحقيقه ، وجاءت ثورة يوليو في مصر لتقدم للعراقيين نموذجاً جديدا للتعامل مع حكومة لا تحظى بتأييد القوى الوطنية ، واضطُرت التطـورات المتلاحقة الوصيّ إلى تكليف رئيس أركان الجيش بتشكيل الوزارة لقمع الانتفاضة التي سميت انتفاضة تشرين ، ورغم بلوغ الملك فيصل الثاني سن الرشد في أيار١٩٥٣ فقد بقي الوصيُّ هـــو الموجه للأحداث وقد ارتأى تكليف نوري السعيد واستقالة وزارة العمري فعقد نوري السعيد بإجراءات قيدت النشاطات التي قد تعبر عن المعارضة ، ثم عقد اتفاقية دفاع مشترك مع تـركيا انضمت اليها بريطانيا وإيران وباكستان وسمي هذا التحالف باسم حلف بغداد الذي أريد منه حفظ مصالح بريطانيا مـــن التهديد السوفييتي والمنافسة الأمريكية مما وضع العراق في مواجهة أعداء بريطانيا ، ثم عقد اتفاقاً خاصاً مع بريطانيا حفظ لها مصالحها في العراق كمـــا اتخذ إجراءات تعسفية ضد مظاهر التأييد الشعبي لموقف مصر

في تصديها للعدوان الثلاثي عـام ١٩٥٦ وأعلن الأحكام العرفية وشن حملة اعتقالات واسعة كمـا حاول ضم سوريا والأردن إلى حلف بغداد لكن الموقف في هاتين الدولتين لم يحبذ ذلك وكانت مساعيه للتدخل في سوريا عسكريا أدى إلى تصاعد جهود المعارضة وتشكيل جبهة طالبت بالخروج مـــن حلف بغداد واستقالة نوري السعيد وتوحيد سياسة العراق مع سياسة الدول العربية المتحررة مـن نفوذ المستعمرين(مصر وسوريا التي أعلنت ثورة على الفرنسيين انتهت بجلائهم عنها) لاتباع سياسة عربية مستقلة ومحايدة وإلغاء الأحكام العرفية وإطلاق سراح السجناء السياسيين وإطلاق الـحريات الدستورية . ويبدو أن إعلان الوحدة بين مصر وسوريا خيبت آمال المسؤولين العراقيين خصوصاً أن عبد الإله كان يحلم بالوصول إلى عرش في سوريا ، وهكذا تَمَّ إعلان (الإتحـاد العربي الهاشمي) وكُلِفَ نوري السعيد برئاسة حكومة الاتحاد واستقر رأي نوري السعيد وعبد الإله على إرسال الجيش إلى سوريا لإسقاط حكومتها وإقـامة الحكم الملكي فيها . وعلى وجه العموم يمكن القول حول العهد الملكي من حيث سلبياته أن الانتخابات كانت باستمرار تتعرض للتزوير فلم تعد لها قيمة كما لم يدخل البرلمـــان طيلة فترة العهد الملكي أي ممثل للطبقات التي تشكل الأغلبية في المجتمع بل اقتصرت على الإقطاعيين والشيوخ وكبار الملاكين . كما استمرت ظاهرة سقوط الوزارات بسرعة وقبل مرور عـــام باستثناء وزارتين أو ثلاث وزارات ، وفي المرحلة المتأخرة (بعد ثورة مايس) فقد سيطرت الشرطة والشرطة السرية على شأن كل فرد تقريباً ومنذ عام١٩٤٥ وتحت ستار مكـــافحة الشيوعية وقعت هجمات ضارية على الوطنيين وأصدرت المجالس العرفية أشد الأحكـام ضدهم وصدر مرسوم بإسقاط الجنسية عمن يحكم بسبب كونه شيوعيا وكان مـن المحتمل تطبيق ذلك المرسوم على أي وطني بحكمه وفق هذه التهمة كما أن اتجاه النظـام أصبح منذ قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ باتجاه إقليمي ضيق فانعزل عن محيطه العربي واكتسب بذلك وصمة جديدة تلحق به ١٥١.

١٥١- انظر كتاب ثورة ٤١ تموز ٨٥٩١ في العراق / ليث عبد الحسن الزيدي /الصفحات ٩١، ٠٢ ،١٢ ،٣٢ ، والصفحات اللاحقة . وينظر تاريخ الوزارات /م٨ / الصفحات من ٦٨٢ الى ٥٩٢ .

انتفاضة ١٩٥٢ في العراق

وتعديل المعاهدات مع بريطانيا والشركات النفطية

تصاعدت المطالبات بتحديد امتيازات الشركات النفطية بحيث تقتصر على الحقول المكتشفة وبرفع مستوى الانتاج إلى ٤٠ مليون طن كحد أدنى وزيادة حصة العراق من الأرباح ثم تطور الأمر إلى المطالبة بتأميم النفط مما دفع الحكومتين البريطانية والأمريكية إلى تحذير العراق من اتخاذ خطوة التأميم وجرى تعديل الاتفاق مع شركة النفط لتصبح الأرباح مناصفة ويكون الحد الأدنى لمجموع الانتاج ٣٠ مليون طن في أواخر عام ١٩٥٥ على أن لاتقل إيرادات العراق عن ٢٠ مليون دينار في سنتي ١٩٥٣ و١٩٥٤ وأن لاتقل عن ٥ ملايين دينار تدفع من قبل الشركات إذا توقف الانتاج لظروف قاهرة مع تأسيس مدرسة لتدريب الفنيين العراقيين وإرسال طلاب عراقيين للدراسة في بريطانيا . لم يكسب التعديل رضا العراقيين الذين شهدوا تأميم النفط في إيران من قبل حكومة مصدق الثورية واعتبروا التعديل استسلاماً جديداً لمشيئة البريطانيين وأُعلن الإضراب يوم ١٩ شباط فشنت الحكومة حملة اعتقالات وتم فصل أعداد كبيرة من طلاب المدارس والكليات الأمر الذي وتر الأجواء السياسية في العراق[١٥٢] ولم ينفع تدخل الشرطة بل أدى استمرار الانتفاضة رغم تدخل الشرطة وإطلاقها النار على المتظاهرين إلى سقوط عشرات الشهداء مما زاد الاضطراب واضطرت الحكومة إلى

١٥٢- انظر تاريخ العراق المعاصر ص٧٦١ وص٨٦١ .

دعوة الجيش للتدخل دون إطلاق النار وتكليف رئيس أركان الجيش بتشكيل حكومة عسكرية تعهدت بإصلاح الأوضاع وفرضت حظر التجوال فتوقفت النشاطات في الشارع ولكن آثار الانتفاضة ظلت مسيطرة على عواطف الناشطين العراقيين . وتعتبر هذه الانتفاضة استمراراً لانتفاضة عام١٩٤٨ حيث لم تستقر الأوضاع في البلاد بشكل حقيقي . وفي هذه الانتفاضة ظهرت بدايات العمل الجبهوي في العراق بين قوى المعارضة المختلفة ومنها القوى اليسارية إذ شهدت تنسيقاً للموقف بين حزبي الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي وبين (الجبهة الشعبية المتحدة) بزعامة طه الهاشمي رئيس الوزراء السابق ومع منظمة (أنصار السلام) الشيوعية١٥٣ ويبدو أن الدور الرئيس في التنسيق بين هذه القوى لعبه السيد كامل الجادرجي الذي استطاع أن يكون نقطة التقاء بين قوى اليمين وبين قوى اليسار . و طالبت القوى السياسية المذكورة بعدم تدخل الوصي في الحكم وبمنح الحريات السياسية وباتباع نظام حر مباشر في الانتخابات و (ذهب الاستقلاليون والوطنيون الديمقراطيون في ضغطهم الى أبعد من ذلك مطالبين بالحد من ملكية الأرض وبسياسة عدم الانحياز وبإلغاء المعاهدة مع بريطانيا)١٥٤ . ويشير أحد المصادر الى أنه في انتفاضة تشرين تميز وجود تنظيمين ناشطين في صفوف (الشباب) أحدهما شيوعي والآخر هو (رابطة الشباب القومي) ، وبسبب نزول (القيادات الشيوعية) الى الشارع فقد برز دورهم في عدد من النشاطات مثل إحراق مكتبة (مكتب المعلومات الأميركي) واحتلال وإحراق مخفر باب الشيخ وإحراق أحد رجال الشرطة حياً١٥٥ ، وقد اعتقل قادة المعارضة والمشاركون في الاضطرابات حتى وصل عدد المعتقلين الى أكثر من ألفين وحكم على اثنين من المشاركين في الاضطرابات بالاعدام١٥٦.

١٥٣-انظر حنا بطاطو / العراق ج٢ الصفحات ٩٢٣و٠٣٣ .
١٥٤- انظر حنا بطاطو / العراق - ج٢ ص ٠٣٣.
١٥٥-نظر حنا بطاطو / العراق - ج٢ ص٢٣٣ .
١٥٦- انظر حنا بطاطو / العراق - ج٢ ص٣٣٣ .

نوري السعيد ودوره في الحياة السياسية العراقية

قضى نوري السعيد فترة مهمة من حيـــاته مثلت بداية فترة نشاطه السياسي تحت عباءة الملك فيصل الأول وأظن أنه كان يشعر نحوه بإعجاب كبير ، لقد أخذ نوري السعيد من زعيمه التعاون مع بريطانيا والاستعانة بها عند الحاجة لتحقيق أهدافه السياسية لكنه لم يستلهم منه الوقوف بوجهها عندما تتطلب المصلحة الوطنية ذلك . فقد اعتمد على بريطانيا بشكل زائد وأيدها بلا تردد واذا أخذنا بنظر الاعتبار شكوك الكثيرين ومنهم الوزير السابق ناجي شوكت الذي اتهمه بالوقـــوف وراء المؤامرة القذرة التي قضت على حياة الملك غازي الذي كانت بريطانيا تتلفت إلى فرصة للتخلص منه١٥٧ ، مع أنه عند تشكيله الحكومة عام ١٩٣٨ وبعد أن اتخذ بعض الإجراءات التخفيفية والترضوية بإعادة المفصولين والمبعدين واسترضاء شيوخ العشائر.. أعلن اكتشاف مؤامـــرة دبرها حكمت سليمان لاغتيال الملك وبعض الشخصيات البارزة مما أدى إلى الحكم بالإعدام على حكمت سليمان . وقد حاول القيام بجهد سياسي لحل القضية الفلسطينية لـــم تأت بنتيجة تذكر ، وكان يحظى بتأييد الضباط القوميين الذين لعبوا دوراً في فرض استحصال موافقة الحكومة برئاسة جميل المدفعي على عـودته مـــن مصر١٥٨ عقب انقلاب بكر صدقي وبعد تمكن الضباط القوميين من التخلص منه باغتياله في الموصل ، وســاندوه لتشكيل الحكومة في عام ١٩٤١ قبل أن يلتفتوا بإشارة منه إلى رشيد عالي الكيلاني كمـــا عمل من خلال الشخصية الفلسطينية محمد أمين الحسيني على إقناع الكيلاني بتشكيل الحكومـة١٥٩ ولـم يكن مقبولًا ولا كان معقولًا أن يتخلى عنهم جميعاً بهذه السرعة لمجرد إرضاء بريطـــانيا دون أن يبذل جهـداً مستحقاً للتوفيق واستغلال كفاءته للتأثير على بريطانيا لصالح تفهم مواقف الضباط ، لكنه تخلى عنهم و أيّـد الوصيّ عبد الإله في هروبه من العراق عند وقـوع الخلاف بين الحكومة والضباط

١٥٧- انظر العراق في التاريخ ص٣٩٦ وتاريخ العراق المعاصر ص٣١١ .

١٥٨- انظر / سعاد رؤوف / نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية ص٨٣ وص٠٦ .

١٥٩- انظر / سعاد رؤوف / نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية ص٧٩ .

القوميين ، وهـو ما أسهم في تفاقم الوضع . ويقال أنه عندما كلف بوزارة الخارجية في الحكومة الائتلافية برئاسة الكيلاني حـاول دفـع الحكومة إلى تبني أفكاره الداعية لمساندة بريطانيا وعندما فشل حـاول تفكيك انسجام الوزارة وإثارة الخلافات ما بين قادة الجيش . وتوجه إلى نوري السعيد انتقـادات كثيرة بحبه للسلطة وعناده وجموده في الأساليب وثقته العظمى أو لنقل اعتماده النهائي على نفوذ بريطانيـا وتغـاضيه عن دور القوى السياسية الصاعدة في العراق والعالم أو كما عُبّر عنه « إهماله للشباب وإخفاقـه في تقدير دورهم الفعال في توجيه الرأي العام «١٦٠.

كـان موقف بريطانيا من قضية فلسطين وتسليمها لليهود بعد تشجيع هجرتهم اليها وتسليحهم وبالمقـابل ممانعتها من تسليح الجيش العراقي وتطويره دافعاً للقوميين عموما والضباط منهم بخاصة للميل إلى ألمانيا كمحاولة للموازنة أو الضغط على بريطانيا لإجبارها على تغيير موقفها لصالح العرب إضـافة إلى أن ألمانيا لم تبدر منها مؤشرات عدوانية تجاه بلدان العرب١٦١. وقد ظهر موقف بريطـاني عدائي واضح من قضية تسليح الجيش عندما لجأت إلى تجريد الطائرات الأمريكية القليلة التي اشتراها العراق من مدافعها الرشاشة ، كما أصرت بريطانيا على عدم شراء القطن الـعراقي حتى تنخفض الأسعار فلما باعته الحكومة العراقية إلى شركة متسوبيشي اليابانية اعتبرت بريطانيـا ذلك أمراً غير مقبول ١٦٢ ولكن نوري السعيد كـان مقتنعاً بحتمية انهيار التحالف بين السوفيت وبين ألمانيا النازية وبهزيمة النازية وبأن مصلحة العراق تقتضي الوقوف بجانب الحلفاء مع بريطانيا وتجده يقول «لو كنت أعتقد بأن بريطانيـا ستخرج من هذه الحرب مغلوبة لكنت أول من يشهر مسدسي عليها١٦٣ « ، ومن جانبها كانت بريطـانيا ترى فيه أصدق الأصدقاء وتقول فيه إحدى الوثائق البريطانية « إن الجنرال

١٦٠- محسن حسين الحبيب / حقائق عن ثورة ٤١ تموز في العراق ص٧١ .
١٦١- انظر كتاب الباحثة سعاد رؤوف / نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية ص٣٨ .
١٦٢- انظر سعاد رؤوف / نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية ص٩٩ .
١٦٣- ص77 .

نوري السعيد هـو الكل في الكل من بين السياسيين الأصدقاء في العراق١٦٤ « . ولكن يجب القول أنه حـاول أن يدفع الفرنسيين باتجاه منح سوريا الاستقلال وإن كان ذلك خوفاً من احتلالها من قبل دول الـمحور وذلك عام ١٩٤٠ عندما كان وزيراً للخارجية ١٦٥ ، وعندما خيبت بريطانيا آمـال نوري الذي حاول أن يلين الموقف البريطاني تجاه القضايا العربية حاول الاتصال بألمانيـا ودول المحور لإعادة العلاقات معها لكن سمعته لديهم بأنه خائن وعميل لبريطانيا منعت نجـاح محاولته وأوقفت اتصالهم به وقد وجه باعتباره وزيراً للخارجية وزيرالعراق المفوض في تركيا للاتصال بدول المحور والعمل على كسب اعترافهم باستقلال سوريا وفلسطين وباقي البلاد العربية١٦٦ . وقد أشار البريطانيون إلى تغير موقفه في إحدى وثائقهم١٦٧. ويبدو أن فشل محـاولاته هذه بل واكتشاف محاولة لاغتياله من قبل عملاء المحور أعاده إلى نهجه الملاصق للسياسة البريطـانية والانقلاب إلى اتجاه مؤيد لموقف الوصي والاتفاق معه على مغادرة العراق في حـالة عدم استقالة حكومة الكيلاني وهنا تماماً وقع الانفصال النهائي والبينونة الكبرى بينه وبين موقف القوميين والكيلاني والعقداء الأربعة خصوصاً بعد رفض صلاح الـدين الصباغ لقطع العلاقات مع إيطاليا والانحياز إلى موقف الحلفاء وبعد أن اكتشفت الاستخبارات البريطانية في العراق اتصالات القوميين بدول المحور وظهور فشل امكانية التأثير على موقف بريطانيـا ثم لجوء بريطانيا مرة أُخرى إلى لعب الـورقة التركية في قضية الموصل من خلال تلميحها بالموافقة على احتلالها من قبل تركيا بشرط أن تنضم إلى الحلفاء ١٦٨ ، وهكذا استقال من منصبه في ١٩ /١٩٤١/١ وأُشيع أنه هرب إلى عمـان قبل أن يهرب فعلاً مع هروب الوصي بعد وقوع حركة مايس ، حيث اتفق مع الوصي على معادرة البلاد وعدم الرجوع قبل سقوط حكومة الكيلاني وتأليف حكومة

١٦٤- انظر / سعاد رؤوف / نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية ص٢٩ .

١٦٥- ص 701 .

١٦٦- ص 111 و211.

١٦٧- انظر سعاد رؤوف المصدر أعلاه ص٣١١ .

١٦٨- انظر سعاد رؤوف المصدر السابق الصفحات٥١١ و٦١١ و٧١١ و٨١١ و٩١١ و٠٢١ و٣٢١ .

موالية لبريطانيا وطلب مـن طه الهاشمي قبل مغادرته ألعمل على منع وصول مؤيدي ألمانيا إلى الحكم فهرب إلى الحبانية ومـن هنـاك أخذته طائرة بريطانية إلى عمان حيث التقى بأركان النظام الملكي الهاربين من بغداد في مـدينة القدس للعمل مع بريطانيا على التدخل العسكري في العراق وإعادة احتلاله ليعود مع الوصي وقـد أصبحت سمعتهما في الدرك الأسفل١٦٩.

عـــاد الوصي تحرسه بنادق البريطانيين فأصبح ما يربطهما ببريطانيا تحـالفاً مصيرياً . ولا أدري إن كان نوري السعيد مكلفاً بجذب الوصيّ إلى ضفة البريطانيين بدلاً من التوجه الطبيعي إلى تأييد التوجه القومي الـــذي لم يذهب إلى حد تغيير النظام الملكي أيام حكومة الدفاع الوطني رغم انعدام المانع . وعندما كلف في ٩ تشرين الثاني عملت حكومته بانسجام تام مع السفارة البريطانية وفسحت المـجال لتدخُّـل البريطانيين واتبعت سياسة التصفية أو الاعتقـال مع مؤيدي ثورة مايس والمتعاطفين معها لمجرد الاشتباه بهم واستلمت قادة الثورة من بريطانيـــا (كـانوا مبعدين إلى روديسيا . جنوب أفريقيا الحالية . تحت إشراف ومراقبة البريطانيين) فقامت بإعدامهم وقامت بتعديل الدستور ليصبح للملك الحق في إقالة الحكومة وإصدار القوانين في غيـاب المجلس التشريعي . وشهد العراق عودة عدد من مظاهر الاحتلال فعاد المستشارون البريطـانيون في الوزارات العراقية وأسندت لهم مناصب مديرين عامين وتم تشكيل شبكة واسعة من عملاء دائرة العلاقات في السفـــارة وأغلقت النوادي الثقافية والاجتمـــاعية التي كانت مسرحا للنشاطات القومية ففتحت بدلها النوادي التي ابتعدت عن السياسة أو السائرة في ركب البريطانيين مثل نادي إخوان الحرية وأصبح العراق قاعدة عسكرية لقوات بريطانيا وحلفائها وبنيت فيه الثكنات والمعسكرات لهذه القوات كما أُنشئت المطارات العسكرية وتم شق الطرق الاستراتيـجية وتعبيدها لها كما تمت صيانة وتوسيع الميناء في البصرة ليخدم سفنهم واستقرت في العراق فرقتان بريطانيتان وثلاث فرق هندية

١٦٩- = المصدر أعلاه الصفحات 521و621و821و921 .

وواحدة بولونية و ظلت هذه القوات في العراق وكان على العراق إطعام هذه القوات حتى رحيلها بعد نهاية الحرب ، وبعد نهاية الحرب احتفظ البريطانيون بقاعدتين عسكريتين جويتين في الحبانية والشعيبة ١٧٠ . وبعد أن رفضت حكومة المدفعي تنفيذ مطالب البريطانيين بدأت السفارة البريطانية بتحريك أصابعها لإسقاط الوزارة فقدم المدفعي استقالة وزارته وكانت السفارة البريطانية ترى أن سمعة نوري السعيد وكراهية الناس له لا تؤهله لتشكيل الوزارة لكن البريطانيين بعدما يئسوا من العثور على من ينفذ رغباتهم ويقبل بتشكيل الوزارة من كبار الساسة لجأوا إلى نوري السعيد فتم استدعاؤه من مصر على عجالة ومن ثم تم تكليفه بتشكيل الوزارة ويبدو أن ذلك كان مقابل تعهدات صعبة تضمنت مـــا يأتي :

١- الالتزام الكامل ببنود معاهدة ١٩٣٠ .٢- تطهير الجيش من مؤيدي المحور . ٣- تقليص الجيش وتكليفه بضبط الأمن الداخلي وتقليل التجنيد الإجباري . ٤- اتخاذ أشد الإجراءات القضائية بحق رشيد عالي الكيلاني وأعوانه . ٥- فصل كافة مؤيدي المحور من الموظفين والمعلمين وتغيير المناهج المنطوية على معاداة البريطانيين . ٦- اعتقال العناصر الخطرة في معسكرات للاعتقال . ٧- غلق المفوضيات التابعة للحكومات الموالية لنظام هتلر. ٨- العمل على عدم إثارة قضية فلسطين وغيرها من القضايا القومية١٧١ والنقطة الأخيرة تعطي مؤشراً على الانقلاب التام على على القضية القومية والقضية الوطنية اللتين طالما اعتبرهما العراقيون ثنائياً مقدساً وبلغ قمة تعسفه بصدور أحكام الإعدام ضد رشيد عالي الكيلاني وقادة حركة مايس والأشغال المؤبدة الشاقة والحبس الشديد ضد مؤيديهم كل على قدر موقعه من التأييد١٧٢ . ولكن يبدو أن سياسة إعدام هؤلاء القادة التي جاءت لإرضاء رغبة بريطانيا وحقد الوصي لم تترك نوري السعيد دون هزة صحية عنيفة لكنه كما يبدو كان مضطراً إلى التماسك ومواصلة

١٧٠- انظر تاريخ العراق المعاصر الصفحات ٩٢١ و١٣١ و٢٣١ .
١٧١- انظر/ نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية الصفحات ٩٣١و٢٤١و٣٤١ .
١٧٢- المصدر السابق ص541 .

(العمل) من أجل الاحتفاظ بمنصبه . وكان أهم ما قام به نوري السعيد تطوير الشرطة كجهاز في خدمة الحكومة وتأسيس الشرطة السرية بحيث أصبحت الحكومة في عام ١٩٥٦١٧٣ قادرة على تفريق المظاهرات قبل أن تستطيع التجمع .

كان العراقيون تواقين إلى الحيـاة الجديدة (بعد الحرب) التي وعدته بها الإذاعات والدعاية الحكومية وساعد ذلك إلى جانب تنـامي الوعي على تطور الحركة الوطنية وتوحيد أهدافها على الاستقلال وجلاء القوات البريطانية وإلغـاء المعاهدة مع بريطانيا أو على الأقل تعديلها بما يوفر الشعور بالكرامة الوطنية المصانة والالتفـــات إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعمل على التخلص من آفات الفقر والمرض والجهـــل وتطوير أســـاليب الزراعة بإدخال الأساليب الحديثة وإقامة الصناعات المتطورة قدر ما تسمح به الظروف . وكان على نوري السعيد أن يتصدر الحكومات التي تعمل على تلبية مطالب شعبه لكنه اكتفى بالعمل على تحقيق أهداف جذابة بما لايتعارض مع الهيمنة البريطانية ويثبت من خلالها أنه قادر على توسيع نطاق خدماته دون المساس ولو من بعيد بمصالح البريطانيين ، ولا أجد سوى هذا التفسير متناسباً مع سلوكـه في السلطة ، فنجده يعمل على تحقيق وحدة الهلال الخصيب وعندما منيت جهوده بالفشل عمـــل على تـأسيس الجامعة العربية بتأييد بريطاني لكنه جوبه بمنافسة مصرية ، ثم أُسست الجامعة بعـــد استقالته فتم إعلان ميثاقها في ١٩٤٥/٣/٢٢ في عهد حكومة حمدي الباجه جي.

لقد عمل في بـادئ أمره لصالح استقلال العرب وحارب من أجل ذلك ولكنه أخيراً رضي بالمنصب وبوجوده ضمن دائرة النفوذ في العراق وتمتعه بتأييد بريطانيا له كلما لزم الأمر وقد أدت مواقفه المختلفة إلى دفع العراق نحو هـاوية الانقلابات وإنهاء الحكم الملكي الدستوري وتنامي سطوة الحركات اليسارية .

١٧٣- حنا بطاطو / العراق / ج٣ ص٤٦ .

خلاصة ورأي

لقد وجدنا من خلال مراجعة التاريخ في مراحله المبكرة أن العراق ظهرت فيه عدة ممالك استطاعت في بعض مراحلها جمع مناطق العراق الحالية في دولة واحدة ثم توسعت حدود بعض هذه الممالك لتشمل مناطق أُخرى من مناطق إقليم غربي آسيا وتحديداً ضمن الأراضي التي استوطنها فيما بعد العرب بشكل خاص مع إضافات بين الحين والحين باتجاه الشرق ضمن الأراضي الإيرانية الحالية أو ضمن حدود تركيا ، ثم ظهرت قوة الفرس لتفوز في الصراع مع الممالك التي قامت في بابل وغيرها من مدن العراق في مرحلة شهدت نوعاً من الإنكفاء والتراجع العسكري والسياسي لأسباب غير واضحة ولايمكن الوقوف بدقة على عواملها وعِبَرها بوجه دقيق ومؤكد ليصبح العراق في فترة لاحقة ساحة للصراع بين امبراطورية الفرس وامبراطورية الروم (البيزنطية) والتي انتهت بنوع من الهدوء النسبي بين الجانبين شهد بروز الدور والوجود العربي بشكله (النهائي) تقريباً . إن صحَّ التعبير . من حيث الخصائص اللغوية والعلاقات العشائرية والنَّسَبيَّة مع التنبيه إلى ميل السكان الواضح إلى إلى الديانة المسيحية والنفور من عقائد الفرس رغم التحالف الظاهري مع تلك القوة التي بدأت تشهد ملامح الشيخوخة وعلامات اقتراب النهاية بظهور النبي العربي والدين الحنيف الذي اتخذ العرب مادة له ويداً تقاتل وتعمل على بناء ملامح عصر جديد ودولة جديدة يجوز لنا أن نسميها دولة العالم الجديد التي اتسعت لمختلف الأعراق والألسنة وأصبح العراق بعد مرور

مئة عام وثلاثة عقود عاصمة لهذه الدولة الجديدة بعد تجربة سابقة انتهت بنهاية خلافة الإمام (الحسن بن علي) فاتخذ العباسيون عاصمتهم في وسط العراق وأقاموا مدينة بغداد لهذا الغرض في خلافة أبي جعفر المنصور ليصبح العراق مرة أُخرى محط الأنظار ومسرح الأحداث ومنتهى الأطماع والأحلام للكثيرين مـــن مختلف الأعراق التي جمعتها الدولة الإسلامية في حدودها الأخيرة وترافق ذلك مع نهضة ثقافية وعلمية وحضارية استرعت انتباه أقطار الأرض وشعوبها ودولها .. لكن تباطؤ عملية التفاعل مع العناصر البشرية التي استجد دخـــولها في المجتمع الجديد وعدم وجود سياسة مستمرة الوضوح والتناسق مع متطلبات الأوضـــاع الجديدة من ناحية وذلك بعدم وجود سياسة تضمن استمرار العدل والنزاهة في أطراف الدولـة المترامية وفي نفس الوقت اتخاذ إجراءات وتدابير لضمان حسن الإدارة في الجيش على الأخصّ وانعـدام الضوابط التي تحافظ على إخلاص الجيش وتخصصه بعملية الدفاع ضد التهديدات الخـارجية وعدم وجود ما يضمن للرعية إمكانية انتخاب من هو أكثر جدارة للخلافة ويستبعد أي جهد تآمري على شرعية السلطة وهي عامل أساس في بقائها أدى إلى تزايد الأطمـاع والتدخلات التي لايمكن اعتبارها خارجية تماماً لكنها تميزت بطابع يجمع بين العنصرية والـقبلية وكونها من خارج الوسط العربي الذي اتسع ليصبح انتماءً ثقافياً وحضارياً وانتماءً لسلوك منسجم مـع السلطة التي كـانت رغم ما يمكن أن يوجه لها من انتقادات تعتبر الأكثر شرعية في حدود الدولة الإسلامية إذا استثنينـا بلاد الأندلس ، وهكذا تعرضت السلطة السياسية لموجات من التدخل والتغلب انتهت بموجـات الغزو المغولي التي فتحت الباب لقيام العديد من الحكومات والدويلات المتناحرة ثم ظهور الـدولة الصفوية التي اتخذت طـابعاً طـائفياً تميز بالتعصب والعنف والتعسف في وقت ظهور قوة الدولة المنافسة وهي الدولة العثمـانية التي كسحت قوات الصفويين في بادئ الأمر لكنها لم تستطع القضاء على تهديدهم والتخلص مـن أطماعهم مما أدى إلى اتخاذ العراق ساحة لإجراءات الحرب والدفاع عن حدود الدولة العثمانية بما انطوى عليه ذلك من تعسف

واضطهاد ضد العرب على وجه الخصوص مما دفع العراقيين وغالبيتهم من العرب إلى التضامن مع أول بادرة استقلال رغم أن من قـادها لم يكن من العرب بل من مماليك العثمانيين الذين نالوا حريتهم وأصبحوا أسيادا لمماليك جُدد قدِّر لبعضهم أن يرتقوا سدة الحكم في العراق لما يزيد عن مئة عام وبدت خلال عهدهم بوادر الاستقرار والنماء لكن العنصر العربي ظل مستبعداً عن مقاليد الحكم وظلت الاتفاقات والامتيازات المالية أو شبه المالية تتخذ وسيلة لكسب وتأييد بعض الأشخاص الذين يحسب لهم حساب في الموازين أو القوى القادرة على تغيير الموازين وبرزت محاولات لم تنجح لتغيير السلطة مـن قبل بعض كبار الشخصيات أو من قبل العثمانيين الذين نجحت محاولاتهم أخيراً في استعادة الـعراق .. وعلى الرغم من اختلاف الحكومات والأعراق التي تعاقبت على السلطة منذ نهاية العهد العباسي الزاهر فإن الأوضاع الزراعية وهي أم الحياة إضافة إلى غيرها من جوانب النشاط الأُخرى المصاحبة لم تزل تشهد المزيد من الإهمال إلا في حالات نادرة ومع حلول عصر النهضة في أوروبا ومع احتكاك الدولة العثمانية بمظاهر التقدم في أوروبا بدأت محاولات الإصلاح في الدولة العثمانية دون أن يجني العراق وأهله شيئاً يستحق الذكر كما بدأت دول أوروبا تكتشف المنافع التي يمكن أن تحققها في بلدان المنطقة وبدأت ترسل الأساطيل وبعثات الاستكشاف وغير الاستكشاف وتبحث عن مواطئ أقدام لها بشكل سافر أو مبطن عسكري أو اقتصادي أو دبلوماسي وبرزت جهود بريطانيا التي تميزت بالإصرار والأنـانية ومحاولة التفرد بغنيمة المنطقة من تجارة وموارد ، ومع تقدم خبرتها ومعرفتها بالمنطقة استطـاعت أن تعثر على الشرخ في نسيج العلاقات بين العرب والدولة العثمانية فعملت على توسيع هذا الشرخ للتأسيس لمصالحها في المنطقة فيما كان العثمانيون يرددون عبارات جوفاء لا طائل من ورائها عن وحدة المسلمين والخلافة الشرعية بينما وعدت بريطانيا العرب بدولة مستقلة يحكمون أنفسهم فيها دون سلطان لأحد فاستطاعت أن تكسب إلى جانبها عددا من رجالات العرب على رأسهم الشريف حسين أمير الحجاز ليخوض الحرب إلى جانبها ضد

العثمـــانيين لكنها اختارت العراق وفلسطين لتنفرد باحتلالهما والسيطرة عليهما في محاولة لاستثمار الـــموارد والإمكانيات التي يمكن الحصول عليها في هذين القطرين ولتضيفهما إلى المناطق التي بسطت فيها نفوذها في مصر وفي سواحل الخليج العربي . لتقوم في العراق ثورة اضطر معها البريطانيون استبدال الحكم العسكري المباشر بآخر غير مباشر خلف ستار حكومة محلية لم يكن لها سلطة حقيقية .

ونجد من مراجعة مجمل الأحـداث والتطورات أن مدرسة الملك فيصل الأول في السياسة والتي تمثل استمراراً لفكر الشريف حسين ومجـايليه بثياب أكثر عصرية ، والمتمثلة بالملك نفسه وجعفر العسكري ونوري السعيد اللذين كـانا أقرب أنصاره وبمثابة ذراعيه قد فقدت زعيمها وهو الملك كما فقـدت ذراعه اليمنى جعفر العسكري ، ولم يتسنَّ للملك غازي الذي ورث عرش ومكانة والده من العمر مـا يسمح له أن يتوصل إلى مستوى خبرة وحنكة والده الراحل فما أن تبين نهجه المنصرف عن مساندة بريطانيا حتى لقي حتفه في حادث يشتبه بتدبيره من قبل نوري السعيد الذي التحم بالجانب البريطاني وعزز معه الأواصر دون النظر إلى الثمن المطلوب من استقلال وسيادة ومصالح العراق الوطنية وروحه المتطلعة إلى الفضاء العربي والوحدة التي تجمع أمة العرب في دولـة تقف شامخة إلى جانب الدول الكبيرة . انفرد نوري السعيد بالصدارة في المشهد السياسي وادخرته بريطانيا للأوقات الصعبة فكانت توعز إلى الوصيّ بتكليفه بالوزارة إذا لم يكن الوصيّ على العرش قـد بادر إلى تكليفه ، واستطاع أخيراً أن يضم الوصيَّ تحت جناحه بعد حركة الضباط القوميين وقيام حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني الذي أصبح ينظر إليه بمثابة زعيم التوجـه القومي غير المرتبط ببريطانيا منذ تلك الأحداث . ورغم أن الوصيَّ حـــاول في النهاية استعادة حرية التصرف السياسي بالتخلص مـن نفوذ نوري السعيد لكنه لم يحاول التخلص من نفوذ بريطانيا والابتعاد عنها مما جعلهما معا في ركب واحد بغض النظر عمن تكون له الصدارة في الركب الذي ضم عددا من السيـاسيين وطلاب السلطة . وهكذا وجدت الجماهير نفسها خلال هذه المرحلة تقف في مواجهة

نوري السعيد والوصيّ ومن معهما في كل مرحلة وفي كل مناسبة وعند انتهاء أو تجديد كل معاهـدة من المعاهدات مع بريطانيا . عندما اندلعت الحرب في فلسطين بسبب قيام دولة إسرائيل التي رفض العرب وجودهـا على أرضهم بعد انسحاب بريطانيا التي ضمنت للصهاينة (اليهود) قيامها ، وجهت اللجنة السيـاسية في إعلانها النقد إلى العراق والسعودية لتقصير حكوماتها في العمل على إرسال الجيوش العربية للحرب في فلسطين (يبدو أن العراق تباطأ في إرسال قواته) إضـافة لعدم جدية الأنظمة العربية الأُخرى في مصر والأردن ، فلم تجد القوات العراقية وغيرها مخططات للقتـال بل لتجنب القتال وحل القضية سلمياً وتم سحب القوات العراقية .. في ظل التبدل المستمر وتساقط الوزارات المعادية للشعب وتشكيل أحزاب لا لتمثيل الشعب بل لدعم رجال السلطة كلما وصل إلى سدة الحكم من لاحزب له ، وعند إلغاء الأحكام العرفية في أواخر عام ١٩٤٩ عـاودت الحركة الوطنية نشاطها وقد اكتسبت بعداً ومطالب اجتماعية حركتها الأفكار اليسارية الإشتراكية وتنـامي الوعي بين الناس مع تطور ونمو حركة التعليم وظهور طبقة عمـالية نامية واكتساب أبناء الفلاحين الوافدين إلى المدينة حظاً من التعليم وتوجه الطبقة الوسطى المتعـاظمة إلى مبادئ التكافل الاجتماعي وما تحض عليه الثقافة العربية الإسلامية من تعاون وتـآزر . وفي الخمسينات تلاحقت التطورات حول العراق ناشرة صوراً للتقدم والعمل الثوري من تأميم للنفط في إيران وإقامة النظام الجمهوري في سوريـا ثم في مصر فانعكس ذلك كله على توجهات القوى السياسية وبدأ الفكر اليساري بالتسلل إلى الحركـات ذات التوجه القومي التي أصبحت أو وجدت في نفسها بديلاً للتوجه القومي اليميني (إن صحَّ التعبير) الذي مثلته العـائلة المالكة ومن آزرها من السياسيين التقليديين .. وكسبت إلى صف هذا التوجه بعض السياسيين من طبقة مـا بعد الرواد والذي نشأوا في ظل الحكم الملكي لافي ظل الحكم العثمـاني . وفي ظل كل هذه الأحداث اختارت العائلة المالكة أن تبتعد عن خيار معاداة بريطانيا بعدما حدث للملك غازي فسكتت عن اندفاع الوصيّ مع التيار البريطاني (باستثناء موقف الشريف

شرف الذي قبل تكليفه بالوصاية على العرش من قبل حكومة الدفـــاع الوطني) ، وشكل ذلك بالتفاعل مع توجهات السياسيين المستعدين لبيع ضمائرهم أو أجزاء منها مقابل السلطة ضغطاً شديداً وعبئاً ثقيلا على مصالح الشعب وعواطفه فلم يعد خاملاً أو غـائباً عن الوعي بل أصبح مطلعاً على الأحداث وعلى الأهداف ويستطيع بحدسه أن يكتشف النوايا السيئة نحوه ولم يعد بإمكانه السكوت على ازدياد وطأة المتعاونين مع بريطانيا وحرمانه من حقه في إيصال من يريدهم إلى مجلس النواب عن طريق تزوير الانتخـــابات المتواصل من قبل الحكومات المتلاحقة وبطء وتيرة النمو الاقتصادي والثقافي وعدم الأخذ بالأفكار النيرة لتدارك المشاكل في هذا المجال وعدم تلبية رغباته القومية في الوصول إلى ما دعا اليه رجـــال الثورة العربية فقد ضحَّى العراقيون بارتباطهم الاسلامي عندما انفصلوا عن الكيان العثماني والبديل العلني هو الرابطة القومية (هناك بديل آخر بالنسبة للبعض وهو الرابطة الطائفية مع إيران لكن هذا البديل لم يظهر إلى العلن).. وأمام هـذا التباعد بل التناقض بين السلطة وبين الشعب (أو الفئات الناشطة) وجد الشعب ملاذه الوحيد لدى الجيش الذي كانت القوى الفاعلة فيه تنتظر الفرصة المناسبة لتنفيذ عمل عسكري يؤدي هـذه المرة إلى تغيير النظام جذرياً وذلك ما حدث في ١٤ تموز ١٩٥٨ حيث قاد ضباط مـن تنظيم الضباط الأحرار (أو هكذا يُحسبون) حركة عسكرية ليس فقط لإسقاط الحكومة بل و لتغيير نظام الحكم والقضاء على رموز النظام الملكي حيث قتل الملك فيصل الثاني في مدخل قصره وهو في طريقه إلى الاستسلام ، بينما قامت الجماهير الحاقدة بإعدام كل من نوري السعيد والوصيّ عبد الإله والتمثيل بجثتيهما .

إن نظرة معمقة ومحاولة للمقارنة بين ما بدأت به المسيرة الوطنية العراقية على يد الملك فيصل الأول وبين ما آلت إليه الأمور في الفترة التي سبقت أحداث ١٤ تموز تكشف لنا عن الكثير من التغاير والاختلاف بين العهدين ربما أمكن إجمال بعضه في النقاط التالية :

وجـود الـملك فيصل الأول كـرمز للأمل وللقدرة على العمل وللشخصية المؤثرة والمهيبة لدى السياسيين ولدى الشعب مختلطة بالحب الذي يولده الأمل ،بينما افتقرت المرحلة اللاحقة إلى مثل هذا الرمز وبذلك الحجم والمكانة مع النسب الشريف.

ما حققه الملك في حياته من قيام حكومة عراقية ولو ضعيفة وتمكنه بعد حين من استخلاص الاعتراف باستقلال العراق ودخوله عصبة الأمم ،وذلك إنجاز لم يتحقق مثله في المرحلة اللاحقة أو مستواه .

استطاع الملك استخدام العنـاصر المتيسرة للضغط على بريطانيا والمناورة معها وكان يستخلص شيئا جديداً في كل مفاوضة يجريها ويجب علينا الإقرار بأنه استفاد من القدرات البريطانية في تحريك عجلة التقدم في العراق الذي كان مفتقراً لكل شيء عدا القدرة على الثورة ،بينما كـانت الحكومات في المراحل اللاحقة تترك ثغرات واضحة في كل اتفاق أو معاهدة جديدة .

استطــاع الملك بحكمته وقوة شخصيته استيعاب الإضطرابات و وجهات النظر المخالفة التقريب بين المطالب المتناقضة ، وأدى ذلك إلى حالة من الاستقرار والتواؤم بين فئات الشعب . بينما أدى الميل إلى استخدام الشدة مــن قبل الحكومات اللاحقة إلى تفاقم الغضب الجماهيري وتحولـه إلى نقمة وتطرف وانفلات وتآمر فيما بعد ، لقد كان الملك فيصل الأول يشعر بأنه ملزم بتحقيق آمال الشعب وللشعب منة عليه أما حكومات المرحلة اللاحقة فكانت تشعر أن الشعب ملزم بتحقيق أحلامهم وطموحـاتهم الشخصية أو على الأقل ملزم بالصبر عليهم حتى يحققوهـا أو هكذا أوحت سياستهم ، بينما شعروا بمنة البريطانيين عليهم.

كان الشعب في بداية المرحلة مستعداً للصبر من أجل أن يرى آماله تتحقق لكن صبره طال وهو لايرى شروق شمس الأحلام الباهر بل مجرد أضواء متفرقة في غبش بــاهت

الضوء من اتفاقيات مع بريطانيا لايدرى متى يتم الخلاص منها ومن الهيمنة المحيطة بهم .

ولاشك أن القوى المحلية المعادية لاستقلال العراق ونهجه القومي العربي كانت في جميع الأحـــوال تتربص الفرص لتستغل ضعف الحكومات العراقية لكن العلاقة مع بريطانيا كانت عامل قوة للحكومـات التي كان غالبها يعلن التزامه بالأهداف القومية (عدا حكومة حكمت سليمـان في فترة الانقلاب البكري فاستغلت إيران تلك الفرصة) . وكانت هناك فرصة نجاة للعراق لو أن الوصي لعب ذات الـدور التوفيقي الذي كان يلعبه الراحل فيصل الأول بتوفيقه بين مطالب العراقيين ومصالح البريطانيين ووقف إلى جانب الضباط القوميين وحقق بعض مطالبهم وأقنع البريطانيين بذلك بحيث يقف العراق في موقف يتوسط بين المساندة المطلقة لبريطانيا وبين الحياد التام مع الرفض لمعاداة بريطانيا لأن الأصل في العلاقة بين بريطانيا وفيصل الذي يمثل العراق كانت علاقة تحالف (إلى حد ما) وهكذا يتم التوصل إلى حل يرضي بريطانيا ويثبت لها أن العراق ومصلحـة العراق لاتضر ببريطانيا ومصالحها وأن مـا تضحي به بريطانيا في علاقتها مع العراق يصبح تعويضه مؤكداً من خلال الصداقة مع الشعب العراقي وما يترتب على ذلك من منافع متبادلة . ربما فهم الوصي أن الشعب أو بعض السياسيين المعارضين لنظام فيصل الموروث يجب أن لايحققوا أهدافهم أو يتوهموا ذلك ولكنه لم يستوعب الدرس كاملاً بحيث يميز حدود التضحية المطلوبة مقابل هدف ما فدفع لتأكيد علاقته ببريطـانيا والاحتفاظ بتأييدها ثمناً باهضاً هو عداء الشعب له شخصياً حتى أن الجماهير الهائجة قامت بتعليق جثته في نفس المكان الذي صلب فيه العقيد صلاح الدين الصباغ بعد إعدامه ، ولكنَّ مـا هو أخطر من ذلك من عواقب عاناه العراق عموماً بظهور الميول الثورية لدى الضباط في الجيش ونهاية ذلك إلى أحداث الرابع عشر من تموز التي فتحت الأبواب أمام الاضطرابات والانقلابات المتلاحقة التي أدت إلى الحكم المستبد الذي طوَّح بالعراق في الهاوية من أجل الاحتفاظ بكرسي السلطة.

كما أن تشكيل الأحزاب والتجمعات السياسية ذات الميول الثورية والاجتماعية واليسارية قد جذب الجماهير المتعطشة إلى المكاسب المادية والمعنوية مما أدى إلى حدوث فجوة بين النظام الموالي لبريطانيا وبين الجماهير التي تأثرت عواطفها بالخطب الحماسية والمزايدات السياسية في غياب تنظيمات سياسية رصينة وعميقة التأثير تستطيع توجيه جماهيرها باتجاه يضمن تحقيق المكاسب دون تعرض للهفوات والهاويات فوقعت جماهير الفلاحين المنتقلين إلى المدن تحت تأثير قوى اليسار فيما لم تجد هذه الجماهير ما كانت تحلم بالعثور عليه في المدن الكبيرة من عمل وحياة جديدة تكفل العيش الرغيد إن لم تكفل الثروة ، فتكدست الجموع العاطلة عن العمل والمحبطة في المقاهي والمجالس لتكون مجالاً للأحاديث الساخطة والنقاشات الساخنة الناقمة والمستعدة لانطلاق شرارة الاضطرابات .. وجاء نجاح الثورة في مصر وبدأت مشاريعها التي ملأت أحاديثها الآفاق من إنشاء السد العالي وتأميم قناة السويس وقهرت العدوان الثلاثي فأصبحت نموذجا للجماهير كي تتطلع إلى تحقيق إنجازات مماثلة أو أكبر وأخيراً جاءت تجربة الوحدة بين مصر وسوريا فلم يبقَ على عورة النظام ما يسترها وهو الذي سحب الجيش العراقي من فلسطين في الوقت الذي أملت فيه الجماهير أنه سيحقق ما عجزت عنه الجيوش العربية الأُخرى بدحر قوات العصابات اليهودية المتطرفة التي أقامت دولتها على أرض شعب عربي أعزل وقع ضحية لتآمر البريطانيين والفرنسيين مع الصهاينة ، بما أدى إلى تمكين الصهاينة من بسط نفوذهم على مواقع الجيش العراقي في فلسطين فتكونت قناعة راسخة بأن النظام الملكي لا يمكن إصلاحه ، من جهة أُخرى فقد بدا أن العراقيين تعلموا درساً من تجربتهم النضالية في الشارع السياسي في مواجهة الحكومات المتتالية والموالية للبريطانيين والمتمسكة بالخطط التي ترسمها السفارة البريطانية للسياسة العراقية والاقتصاد العراقي وبالنتيجة التطورات الاجتماعية وبدا واضحاً بعد تجارب متكررة من المواجهات مع شرطة نوري السعيد ، أن الحكام المستبدين لن يتورعوا عن استخدام كل وسائل البطش التي تيسرت لهم ، وأن

المواجهة السلمية لا تنطوي إلا على المخاطر دون أن تكون لها فائدة وأن الحل الوحيد يتمثل في العمل السري واتباع سياسة التآمر من جهة واللجوء الى سياسة العنف المضاد والتخلص من الخصم السياسي قبل أن تتاح له الفرصة للرد واستعادة زمام المبادرة ١٧٤ (وهذا يعني ضمنياً نقض رابطة الانتماء الوطني المشترك بين الحاكم والمحكوم أو بين الخصوم السياسيين في المراحل التالية) وأدت هذه السلوكية الى التأثير السلبي الواضح في نواح اجتماعية وأخلاقية في المجتمع العراقي خلال المراحل التالية وأشاعت روح الانقسام الى حد ما في المجتمع ومن الواضح أن المسؤول عن ذلك هو التصلب في التمسك بالسلطة أو بموقف الحكومة في مواجهة مطالب المواطنين .

وبينما كان الزعماء السياسيون إما منضوون تحت راية النظام أو مكبلون بقيوده ومراقبة أجهزته الأمنية .. كانت هناك مجموعات من الضباط تراقب وتعمل في الخفاء بصمت للتحرك في الوقت المناسب ..في خلال تلك الفترة حاول أبرز حزبين سياسيين لهما قاعدة جماهيرية وهما حزبا الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي أن يتوحدا في حزب واحد لكن الحكومة لم توافق على الترخيص للحزب الجديد ثم تواءمت جهود هذين الحزبين وتواكبت مع دور قام به الحزب الشيوعي وشمل أيضاً حزب البعث وأدى الى قيام جبهة الاتحاد الوطني التي ضمت الأحزاب المذكورة ١٧٥.

١٧٤- أشار الى ذلك عبد الكريم قاسم في العديد من خطاباته عام ١٩٥٨ و١٩٥٩ .

١٧٥- انظر حنا بطاطو/ العراق / ج٣ الصفحات ٨٦و٩٦و٠٧و١٧ .

نظرة الى الواقع الاجتماعي العراقي في العهد الملكي

لقد بدأت الدولة الإسلامية حياتها وهي تقوم على التزام طوعي بالقيم والمبادئ الدينية التي تحض على العفة والنزاهة وتلتزم بهما وتميل الى الزهد والورع اللذين يتجليان في سلوك أبي بكر وعمر وعلي بشكل شديد الوضوح ولكن انتقال السلطة بعد ذلك الى الأسرة الأموية غير نمط السلوك والنهج الذي سارت عليه مؤسسة السلطة لاحقاً فأصبحت تسير على أسس تخلت عن التعفف والنزاهة (ناهيك عن مسلك الزهد والورع) وذلك ما دفع الى الواجهة بفكر جديد وعقليات جديدة ترى في السلطة مغنماً وفرصة للحصول على الثروة وتلبية الشهوات المتنوعة ، لكن المجتمع الإسلامي والعربي لم يستجب فوراً لذلك التغير وهذا يفسر قيام سلسلة الثورات وحركات التمرد المتلاحقة طيلة العهد الأموي ، وذلك ما حاول العباسيون فيما بعد التواؤم معه من خلال اتخاذ الصبغة الدينية والتخفيف عن الناس (ولو نسبياً) فاستطاعوا كسب قدر مرض ٍ من القبول لدى عامة الناس ، وفي نهاية العصر العباسي والعصور اللاحقة ظهر البعد الطائفي مستفيداً من الاختلافات ومن دواعي التمرد وأصبح طابعاً للصراع البين العثمانيين والصفويين على العراق .. لكن النظرة الى السلطة لم تختلف لدى الفريقين ولم تقترب من نقطة الأصل التي حددتها مبادئ الاسلام .. ولم يعـد السلطـان يقول للشعب ... «

لستُ خيراً منكم « ولم يعد يعتقد أنه مكلف بالرعاية والعناية ومحتاج الى العون على الاعتدال وإقامة الاعوجاج ، وظلت السلطة مغنماً وفرصة للتمتع بالشهوات المتجددة التي أولها الثروة والتحكم في في الآخرين وليس لها آخر ، وبما أن هناك دائماً آخرون يتطلعون الى هذا المغنم بسبب ضعف عوامل الشرعية في السلطان فلا بد أن تكون نظرة السلطان الى هؤلاء (أياً كانوا) نظرة صاحب الدار الى اللص أو قاطع الطريق أو المجرم الذي يريد اغتصاب « الحق « أما الآخرون فربما اعتبروا السلطان غاصباً لحقوقهم واعتبروا أنهم طلاب حق ، وبتكرار الصورة والتجربة مع كل سلطان وحاكم جديد أصبح الحكام في كل مرة أشد تمسكاً بما في أيديهم من سلطة وأصبحت المحافظة عليها بمرور الأيام عقيدة لهم وازداد رسوخ هذه العقيدة في العصر الحديث مع ازدياد رسوخ ملامح الدولة وملامح السلطة . فنلاحظ أن رؤساء الحكومات المبكرة في العراق وبغض النظر عن نزاهتهم الشخصية .. لم يجدوا في الحكم ما يستثير الأطماع اذا ما قورن بالذين تلوهم فقفز أحد ضباط الجيش ليقوم بأول انقلاب عراقي متشبها بالانقلابيين الترك لكنه بسبب غياب السلطة المطلقة اكتفى بفرض رغباته في حكومة تأتمر بأمره وتتبع إشارته . وكانت تلك أول إشارة في الواقع العراقي الحديث الى تفاهة فكرة الشرعية التي تسندها القوة . ثم درت الموارد النفطية أموالها على الحكومات فأصبحت السلطة ذات بريق أخاذ لايقل عن لمعاناً وجاذبية عن بريق الذهب ، بل ربما زادت عنه حتى تصبح أكثر قيمة في نظر البعض من الحياة . ويسرت الأموال فرص توفير الوسائل لحماية أمن السلطة من أطماع الطامحين والمتطلعين اليها ولم يعد الاستماع الى صوت الجماهير الغاضبة ولا شكواها المتصلة أمراً ذا بال وأهمية .. خصوصاً مع وعود الدعم والحماية من خارج العراق وكان هذا حال سلطة نوري السعيد في العراق خلال العقد الأخير من الحكم الملكي على الأقل وينطبق الأمر على بقية الباشوات مهما قيل عن بساطة هذا وتعفف ذاك . أما الشعب فقد استمرت مطالباته واستمر سخطه واستمرت احتجاجاته ، ورغم أنها كانت مبررة وصادقة ومشروعة ونبيلة فقد نجحت السلطة التي تدعمها الثروة والقوة في الصمود طويلاً وفي

الاستمرار على نهجها وعلى ضلالتها لتبقى الجماهير على حرمانها وسخطها ثم لتكتشف أن طريق المطالبة و المعارضة السلمية لن يؤدي الى الحل في مواجهة هذا الحكم وكان هناك النموذج السيئ من انقلاب بكر صدقي في إمكانية الجيش على ضرب السلطة والتجاوز على الشرعية المهلهلة التي لم تنفع الجماهير الجائعة في شيء ولم يكن هناك ما يمنع استنساخ التجربة سوى مقدار ما يتوفر لدى كل طرف من قوة السلاح .. وهكذا تعلم العراقيون أن يصبروا بعض الوقت ليجدوا من يقتنع بتدبير انقلاب على السلطة .

obeikandl.com